

الحديث والقرآن والعقيدة

كيف يجتمع القرآن والسنة في تعليم الإيمان؟ يبدأ هذا الكتيب من وظيفة البيان، ثم يشرح حديث جبريل والحديث القدسي، ويصل معرفة الله بالعبادة والعدل من خلال نصوص يتضح فيها المعنى وأثره في الحياة.

01 رسالة واحدة وبيان نبوي

يتعلم المسلم دينه من القرآن ومن السنة الثابتة عن الرسول ﷺ. القرآن يأمر بطاعة الرسول، ويجعل له وظيفة بيان ما نزل للناس؛ فتلتقي قراءة الكتاب بتعلم هدي النبي الذي بلغه. وكان الصحابة يسمعون الآيات ويشاهدون العمل بها، ويسألون عما أشكل عليهم، فيعرفون الرسالة من كلمات تتلى وتعليم يعيشون أثره في حياتهم.

في سورة النحل يذكر القرآن إنزال الذكر إلى النبي ليبين للناس ما نزل إليهم. يظهر هذا البيان في المثال القريب: يأمر القرآن بإقامة الصلاة، ويعلم الرسول أصحابه الصلاة بالفعل والقول. قال لمالك بن الحويرث وأصحابه: «صلوا كما رأيتموني أصلي». فالأمر القرآني والتطبيق النبوي يؤديان إلى عبادة واحدة، لا عبادتين مختلفتين.

اشترك القرآن والسنة التشريعية في الهداية من الله لا يجعل كل حديث قرآناً، ولا يحول كل ما ينسب إلى النبي إلى خبر صحيح. هناك سؤال عن منزلة البيان النبوي، وسؤال آخر عن ثبوت رواية بعينها. وجمع السؤالين يفسر لماذا اعتنى العلماء بفهم السنة وبنقد رواياتها معاً؛ فحمايتها من الخطأ خدمة لمرجعيتها وليست إنكاراً لها.

المراجع: 1، 2، 3

02 حين تشرح السنة معنى آية

قد يعرف القارئ معاني الكلمات، ثم يبقى محتاجاً إلى معرفة المراد بها في موضع معين. ففي آية الأنعام التي تعد بالأمن والهداية من لم يخلط إيمانه بظلم، خشي الصحابة أن يشمل الشرط كل خطأ يقع منهم. لم يكن سؤالهم اعتراضاً على القرآن، بل رغبة في فهم خطاب يصف حالهم ومصيرهم.

يبين تفسير ابن كثير أن النبي ﷺ فسر الظلم هنا بالشرك، ووصل الآية بقول لقمان إن الشرك ظلم عظيم. هذا مثال على السنة التي تشرح القرآن بالقرآن: ينقل الصحابي السؤال والجواب، ويجمع البيان النبوي بين الموضوعين. بذلك يتضح المقصود الذي لم يصل إليه السامعون بمجرد معرفتهم العامة بكلمة الظلم.

ولا يعني هذا الشرح أن الاعتداء على الناس لم يعد ظلماً؛ إنما يحدد المعنى المقصود في هذه الآية. تشبه المسألة كلمة لها استعمالات متعددة، يعين السياق أحدها دون إلغاء سائر استعمالاتها. لهذا لا تكفي قراءة لفظ منفرد لبناء اعتقاد كامل؛ فالسنة وسيقاق الآية وبقية النصوص تكشف كيف تجتمع المعاني في خطاب واحد.

المراجع: 4

03 حديث جبريل يجمع الإيمان والعبادة

العقيدة تتعلق بما يؤمن به الإنسان عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر. وليست في تعليم النبي مجموعة أسماء محفوظة بلا صلة بالحياة. يروي عمر بن الخطاب في صحيح مسلم مشهد رجل جاء يسأل الرسول عن الإسلام والإيمان والإحسان، ثم عرف الصحابة أنه جبريل جاء ليعلمهم دينهم.

في الجواب عن الإيمان ذكر النبي هذه الأصول، وفي الجواب عن الإسلام ذكر الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج، وشرح الإحسان بعبادة الله مع استحضار مراقبته. تتابع الأسئلة يكشف الصلة بين ما يصدق القلب وما يعمل الإنسان وكيف يؤديه. فحديث واحد يصل الاعتقاد بالعبادات وبصدق الحضور فيها، ولا يحصر الدين في مظهر خارجي.

ومن أمثله الإيمان باليوم الآخر: يعرف الإنسان أن عمله محسوب وأن لحياته غاية. والإحسان يجعل هذا المعنى حاضرا حين يكون وحده كما يكون حاضرا أمام الناس. فقد يستطيع إخفاء تقصير عن أعينهم، لكنه يعلم أن الله يراه؛ فيدفعه هذا العلم إلى صدق يتجاوز طلب الثناء، وإلى رجاء الأجر على خير لم يشهده أحد.

المراجع: 5

04 ما الحديث القدسي؟

الحديث القدسي خبر ينقله النبي ﷺ عن ربه، وليس من القرآن. وقد يأتي بصيغة يذكر فيها الراوي أن الرسول يروي عن الله، أو بصيغة ينسب فيها القول إلى الله تعالى. مثال ذلك حديث أبي ذر في صحيح مسلم، الذي يبدأ بإخبار الله عباده أنه حرم الظلم وجعله بينهم محرما. نسبة القول إلى الله هي سبب تسميته قدسيا.

يشرح ابن باز الفرق بينه وبين القرآن: القرآن له خصائصه من الإعجاز والتعبد بتلاوته والقراءة به في الصلاة، ولا يأخذ الحديث القدسي هذه الأحكام. فلو حفظ شخص حديث أبي ذر، لم يصبح نصه سورة من المصحف، ولم يجز أن يجعله بدل القراءة القرآنية المطلوبة في الصلاة. هذا الفرق يبقى قائما مع تعظيم النصين والإيمان بما ثبت فيهما.

أما الحديث النبوي الذي لا يسند فيه النبي القول إلى ربه، فينسب إلى الرسول، مثل حديث النيات. وقد يكون تشريعا وتعلينا من الله مع أنه لا يسمى قدسيا. ويتضح الفرق بمقارنة الصيغتين: في حديث النيات ينقل عمر قول الرسول، وفي حديث أبي ذر ينقل خبرا يرويه الرسول عن الله. وتبقى صحة الطريق مسألة يبحثها المحدثون في كل نوع.

المراجع: 6، 7، 8

05 مثال قدسي يجمع معرفة الله ومسؤولية الإنسان

حديث أبي ذر ليس قائمة أوامر متفرقة. يبدأ بتحريم الظلم، ثم يذكر افتقار العباد إلى الهداية والطعام والكسوة والمغفرة، ويبين غنى الله عن طاعتهم ومعصيتهم. تجتمع هذه المعاني لتعليم الإنسان أنه محتاج إلى ربه، وأن القدرة التي يجدها في نفسه ليست استقلالاً عنه ولا مبررا للتكبر على سائر الخلق.

يظهر أثر ذلك في الربط بين الاستهداء وترك الظلم. فمن يسأل ربه الهداية يتعلم أن يهتدي في معاملته للضعيف، ومن يرجو المغفرة يتعلم الاعتراف بالتقصير. وتكرار نداء العباد في الحديث يقرب هذه المعاني إلى السامع: حاجته إلى ربه حاضرة في طعامه ولباسه كما هي حاضرة في إيمانه وتوبته، فتنتظم جوانب حياته في صلة واحدة.

ويختتم الحديث بذكر إحصاء الأعمال والجزاء عليها، فيعود من معرفة الله إلى عمل العبد. فصلاح الإنسان لا يزيد في ملك الله، وفساده لا ينقص منه؛ لكنه يجد أثر عمله في مصيره. بذلك يلتقي هذا الحديث القدسي مع تعليم الإيمان باليوم الآخر في حديث جبريل: الاعتقاد بوجه العمل، والعمل يكتسب معناه داخل الصلة بالله والرجوع إليه.

المراجع: 5، 7

06 التوثيق يحفظ المعنى المقدس

قد تحمل رسالة متداولة عنوان «حديث قدسي» مع عبارة مؤثرة، لكن العنوان لا يكفي لإثبات النسبة. وصف الحديث بأنه قدسي يختلف

عن وصفه بأنه صحيح أو ضعيف؛ فالأول متعلق بمن نسب إليه القول، والثاني متعلق بثبوت النقل. ولذلك لا تتجاوز الرواية البحث في سندها ونصها لمجرد أنها تتحدث عن الله.

في مثال أبي ذر نستطيع تسمية الصحابي والمصدر والموضع: صحيح مسلم، الحديث 2577a. أما جملة مجهولة ألحقت به فلا تكتسب صحته بمجرد مجاورتها له. يشرح ابن حجر أن قبول الأخبار يحتاج شروطاً، وأن الخطأ قد يقع في ألفاظها كما يقع في طرقها. صيانة اللفظ هنا جزء من احترام المعنى الذي يراد تعليمه.

تستقيم الصورة إذن بثلاث علاقات متصلة: القرآن أصل يتلى، والسنة بيان ثابت يعلم، والعقيدة فهم وإيمان يظهر أثرهما في الحياة. والحديث القدسي واحد من أنواع الأخبار النبوية، له نسبته الخاصة دون أن يختلط بالمصحف. ومن هذه المعرفة ينتقل الكتيب التالي إلى الفقه والعبادات: كيف يصير فهم النص عملاً، مع بقاء الفرق بين كلام الرسول واجتهاد شارحه.

المراجع: 9، 7

* المراجع

1. وظيفة البيان النبوي

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النحل، الآية 44

يبين موضع الرسول من تعليم القرآن وشرح ما نزل، وهو أصل العلاقة التي يمثل لها الكتيب بتعليم الصلاة.

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

2. طاعة الرسول والرجوع إليه

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة النساء، الآية 59

يشرح ابن كثير الرجوع إلى الرسول بالرجوع إلى سنته؛ فتتضح للقارئ مرجعية البيان النبوي في تعلم الدين وفهمه.

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

3. تعليم الصلاة بالمشاهدة

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب الأذان، الحديث 631

يروى مالك بن الحويرث أمر النبي بتعليم أهل الصلاة كما رأوه يصلي؛ المثال يربط الأمر القرآني بالتعليم النبوي المحسوس.

المرجع الأصلي: sunnah.com

4. بيان الظلم بالشرك في آية الأمن

القرآن الكريم؛ تفسير ابن كثير — سورة الأنعام، الآية 82؛ الروايات عن ابن مسعود

يحفظ سؤال الصحابة والبيان النبوي، فيرى القارئ كيف تعين السنة المراد بكلمة لها استعمالات متعددة.

المرجع الأصلي: quran.ksu.edu.sa

5. حديث جبريل في تعليم الدين

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب الإيمان، الحديث 8a، رواية عمر بن الخطاب

يجمع الإسلام والإيمان والإحسان في مشهد تعليمي واحد؛ ترتيب الأسئلة والأجوبة يكشف صلة الاعتقاد بالعبادة ومراقبة الله.

المرجع الأصلي: sunnah.com

6. الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي

عبد العزيز بن باز — نور على الدرب، جواب الفرق بين الأنواع الثلاثة، المادة 8850

يعرف القدسي ويميز خصائص القرآن عنه، ويمثل بحديث أبي ذر وحديث النيات؛ فتعدو الأنواع واضحة من صيغ روايتها واستعمالها.

المرجع الأصلي: binbaz.org.sa

7. حديث أبي ذر القدسي في تحريم الظلم وافتقار العباد

الإمام مسلم — صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، الحديث 2577a

ينسب أبو ذر الخبر إلى النبي فيما رواه عن الله. تجمع فقراته تحريم الظلم وافتقار العباد والجزاء، فتصل معرفة الله بمسؤولية العمل.

المرجع الأصلي: sunnah.com

8. مثال للحديث النبوي غير القدسي

الإمام البخاري — صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، الحديث 1

ينقل عمر قول النبي في النيات؛ بمقارنة صيغة الرواية بحديث أبي ذر يتضح فرق تسمية النبوي والقدسي.

المرجع الأصلي: sunnah.com

9. شروط قبول الأخبار وتمييز أخطاء النقل

أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني — نزهة النظر، تعريف الصحيح لذاته، ثم مبحث القلب في المتن

يشرح شروط القبول ووقوع الخطأ في اللفظ؛ ومنه يفهم القارئ كيف يخدم توثيق الرواية حفظ المعنى الذي يتعلمه.

المرجع الأصلي: ar.wikisource.org

* أسئلة وإجابات

حفظ قارئ حديث أبي ذر القدسي، فهل صار قرآناً يجوز جعله بدل القراءة القرآنية في الصلاة؟ ولماذا؟

لا. هو حديث ينقله النبي عن ربه، لكنه ليس من القرآن ولا يأخذ خصائص تلاوته في الصلاة. قدسيته تصف نسبة القول، وصحته تعرف من ثبوت الرواية، وهما أمران مختلفان.

كيف يصل حديث جبريل وحديث أبي ذر بين الاعتقاد والسلوك؟

يجمع حديث جبريل الإيمان والإسلام والإحسان، فيربط الاعتقاد بالعبادة ومراقبة الله. ويصل حديث أبي ذر معرفة غنى الله وافتقار الإنسان بتحريم الظلم وإحصاء الأعمال والجزاء؛ فلا ينفصل الإيمان عن مسؤولية العمل.

المقال في لماذا الحديث؟